مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
المجلد 18 العدد 1 (2025): 359 – 379 ISSN : 1112-7163 E-ISSN: 2588-1892

"قصة الفداء أعظم درس في تربية الأبناء" لحمو بن عمر فخار- مقاربة تداولية -

"The Story Of Sacrifice: The Greatest Lesson In Raising Children" By Hamou Ben Omar Fekhar - A Pragmatic Approach-

محرز عبد السلام

جامعة غرداية، مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري، كلية الآداب واللغات
mahrez.abdesselam@univ-ghardaia.edu.dz

تاريخ الاستلام:02-03-2025 تاريخ القبول:15-05-2025 تاريخ النشر:01-06-2025

ملخص :

يتناول مقالنا خطبة "قصة الفداء أعظم درس في تربية الأبناء" لحمو بن عمر فخار – مقاربة تداولية – وموضوع المدونة يتضمّن الأساليب التربوية والاجتماعية التي على الآباء أن يسلكوها في مرافقة أبنائهم وتوجيههم، والتي يكشف عنها السياق والمقام في الخطبة ضمن الآليات الحجاجية واستراتيجيات الخطاب، وتبرزها العلاقة التي تربط بين قصدية الكاتب ومعاني الكلام.

ومن الروابط الحجاجية؛ الواو، والفاء، وحتّى، وإذن، ولا، ولكن وغيرها، والعوامل الحجاجية كالتوكيد، وأسلوب القصر، والحصر، والتكرار كتكرار الكلمة أو تكرار الجملة، وأفعال الكلام كالاستفهام والتشبيه والاستعارة وغيرها.

فما تجليات أسلوب الإقناع في الخطبة؟ وما الآليات الحجاجية التي وظفها الخطيب لتحقيق ذلك؟

ويهدف هذا المقال إلى الوقوف على القضايا التداولية من الأفعال الكلامية ومتضمنات القول والاستلزام التخاطبي وغيرها، وإبراز مدى توفيق الخطيب بين تلك القضايا في خطبته.

كلمات دالة خطبة – حجاج– مقاربة تداولية – حمو فخار.

المؤلف المرسل: محرز عبد السلام: wissal72@gmail.com

Abstract:

This Article Discusses The Sermon "The Story Of Redemption: The Greatest Lesson In Child Raising " By Hammou Ben Omar Fekhar – A Pragmatic Approach. The Content Of The Corpus Includes The Educational And Social Methods That Parents Should Adopt In Accompanying Directing Their Children And. These Methods Are Revealed Through The Context And Setting Of The Sermon Within The Argumentative Mechanisms And Rhetorical Strategies Which Are Highlighted By The Relationship Between The Author's Intentions And The Meanings Of The Speech.

Among The Argumentative Connectors Used Are Conjunctions Such As "And", "Until", "So", "Nor", And "But", Along With Rhetorical Elements Like Emphasis, Exclusive Expression, Restriction, Repetition (Such As Repeating Words Or Sentences), And Speech Acts Like Questioning, Comparison, Metaphor And Analogy, Among Others.

What Are The Manifestations Of Persuasive Style In The Sermon? What Rhetorical Strategies Did The Preacher Use To Achieve This?

The Article Aims To Explore The Pragmatic Issues Of Speech Acts, Utterance Implicatures, Communicative Entailments, And Other Aspects, Highlighting The Preacher's Success In Combining These Issues In His Sermon.

Keywords: Sermon – Argumentation – Pragmatic Approach – Hamou Fekhar.

مقدمة:

التداولية فرع من فروع اللسانيات، وهي تقوم بتحليل الخطاب والكشف عن المعنى الذي يقصده المتكلّم وعن معاني الكلام التي تعبّر عنها مختلف الأدوات اللغوية والصيغ التركيبية والعلاقات القائمة بينها، فإذا كانت اللسانيات البنوية قد ركّزت على بنية النص الداخلية بمعزل عن مختلف السياقات التي أنتجته؛ فإنّ اللسانيات التداولية قد وجّهت شطر اهتمامها إلى النسق والسياق معا؛ إذ رأت أنّ دراسة النسق اللغوي للنص لا يكفي بل هناك عوامل خارجية تسهم في

إنتاجه وتكشف عن العلاقة التي تربط نسق النص بسياقه. وبذلك فالتداولية تقوم على دراسة استعمال البنية اللغوية في الإطار السياقي النفسي والاجتماعي لمستعمليها؛ لأنّ اللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية تشاركان التداولية في جانب تحديد العلاقات الاجتماعية بين المتخاطبين وإبراز مرتبتهما، وأثرهما السياقي في اختيارهما السمات اللغوية أثناء التواصل.

هذا وقد تم اختيارنا لفن الخطابة الذي عرف في المجتمع اليوناني، وما لبث أن انتقل إلى البيئة العربية، فاحتلّ مكانة مرموقة، واكتسبت أهمية بالغة في شحذ الهمم وإذكاء روح الإيمان في النفوس، وإظهار الحق وإعلائه وإظهار الباطل ودحضه، وهي بذلك وسيلة من وسائل الاتصال وأسلوب من أساليب الدعوة والإرشاد.

فكان الخطيب في الجاهلية لسان قبيلته إذ أسعفته في ذلك البديهة الحاضرة واللغة الجزلة، والفصاحة والبلاغة التي تدفعه إلى الارتجال. ومن أمثلة الذين أجادوا في هذا الفن قسُّ بن ساعدة وسهيل بن عمرو، إلاّ أنَّ الكثير من خطب ذلك العصر لم تصل إلينا لعدم انتشار التَّدوين. وموضوعات الخطبة متعددة مرتبطة بما يريد الخطيب منها: الدِّينية والاجتماعية والسِّياسية والحربية (عماد علي سليم الخطيب، 2009، صفحة 151)

وبعد ظهور الإسلام شهدت الخطابة تطوُّرا واضحا في أسلوبها ومحتواها؛ فأصبحت وسيلة الدُّعاة المفضلة، بل صارت شعيرة من شعائر بعض العبادات؛ كصلاة الجمعة، وصلاة العيدين، إذ تقوم بدور ترسيخ العقيدة ونشر الدَّعوة، والتَّحريض على الجهاد. فقد كان الرسول (ص) أخطب العرب قاطبة، ومن أشهر خطبه تلك الَّتي خطبها في حجة الوداع. وبالمثل كان الخلفاء الرَّاشدون خطباء مفوَّهين، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب، ﷺ.

أما في العصر الأموي فقد اتَّسعت موضوعات الخطابة، وتعدَّدت أساليبها، فطغى على مضامينها الطَّابع الجاهلي القبلي، واتَّجه كثير من الخطباء إلى تمجيد الأحزاب السِّياسية، فتأجَّج بذلك الصِّراع بين الاتِّجاهات الدِّينية والسِّياسية المختلفة، مما أدَّى إلى خصوبة الميدان الخطابي، وذلك ما نجده جليًّا في خطب الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي وزياد بن أبيه...

استمرّ هذا الصِّراع الدِّيني والسِّياسي في العصر العباسي. وبتنوَّع الثَّقافة العربية وتعدُّد مشاربها, وانفتاحها على الثَّقافات الأخرى، تحوَّلت الخطابة إلى فن أدبي راقٍ منظم بعد أن كان مرتجلا. وبمرور الزَّمن قضى العبَّاسيون على تلك الصِّراعات نسبيا، فاتجه الخطباء إلى مجالات أخرى

كالدِّين والوعظ والتّنويه بالخلفاء، ومن أبرز خطباء هذا العهد أبو العباس السَّفاح، وأبو جعفر المنصور.

أما في عصر الانحطاط كما في عصر الأتراك شهدت الخطابة ضعفا كسائر الفنون الأدبية الأخرى؛ إذ أصبحت أكثر ميلا إلى التَّقليد والرَّتابة منه إلى التَّطور والإبداع، واعتراها بذلك التكلُّف، وانحصرت موضوعاتها في المناسبات الدِّينية، فظلّ الخطباء يكرِّرون معاني السَّابقين.

وفي العصر الحديث تجاوزت الخطابة وتيرة التَّقليد والرَّتابة. وهذا ما نلمسه في الخطابة الجزائرية مع ظهور" الأمير عبد القادر" وغيره، فتحرَّرت من قيود السَّجع والتكلُّف، ومالت إلى البساطة في التَّعبير والقصد في القول دون إطناب (عبد الله ركيبي، د.ت.ط ، صفحة 16) . وقد ساعد على ذلك وجود الصِّراع بين الجزائر وفرنسا، فتمسَّك الخطباء بهذا اللَّون من النَّثر، واستغلوه في الدَّعوة إلى الجهاد، وبعث روح اليقظة في النُّفوس لإدراك خطورة الاستعمار. واستمرت على ذلك النّمط إلى غاية الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي ـ مع ما عرفته من الرُّكود خلال بعض الفترات.

وما إن بزغ نجم الحركة الإصلاحية، حتى أخذت أفكار المصلحين تنتشر بفعل النَّوادي والجمعيات الثَّقافية، وانتشار الصِّحافة الوطنية فتطورت الخطابة أسلوبا ومضمونا وموضوعا. وبعد أن أُنشئت "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" حمل الخطباء على عاتقهم الدَّعوة إلى مبادئها وأهدافها وأفكارها، ومن هؤلاء الخطباء المصلحين المشايخ: عبد الحميد بن باديس، مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، الطيب العقبي، أحمد توفيق المدني، الشيخ بيوض إبراهيم... وغيرهم. وقد حذا الشَّيخ حمو فخار حذو هؤلاء المصلحين في ميدان الخطابة.

وقد جاءت المقاربة التداولية لتقف على الخطبة وما ورد فيها من سياقات التلفظ والقصدية، والمقام، وأفعال الكلام، وآليات الحجاج من شواهد وأدوات تسهم في الإقناع، وتساعد الخطيب على تبليغ مقاصده، كما أنّ المقاربة لم تغفل السياقات التي ولد من رحمها هذا الخطاب، سواء أكانت دينية أو اجتماعية أو تاريخية.

وبما أنّ أفعال الكلام هي روح الخطاب وأساسه فقد سعت المقاربة إلى الكشف عن الاستراتيجية الخطابية التي اعتمدها الخطيب لتبليغ رسائله من خلال تلك الأفعال الكلامية الصريحة أو الأفعال الكلامية الضمنية، والآليات اللغوية كالتكرار اللفظي والتكرار المعنوي وصيغ

المبالغة، والآليات البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية، والآليات التداولية كالروابط والعلاقة بين المخاطب والمخاطبين، والمقام والسياق، والأفعال اللغوية اللفظية والإنجازية والتأثيرية.

فإلى أي مدى حقّق الخطيب جانب إقناع المستمعين على ضوء الآليات التداولية الحجاجية والاستراتيجية الخطابية؟ وفيم تتمثّل هذه الآليات التداولية الحجاجية؟ وما هي الاستراتيجية الخطابية التي اعتمدها في التبليغ؟

وللإجابة عن الإشكالية الرئيسة والأسئلة الفرعية عنها اعتمدنا المقاربة التداولية منهجا في تحليل الخطبة.

فقبل تطرقنا إلى الجانب التطبيقي تناولنا مدخلا يتمثّل سيرة موجزة عن الخطيب، ومضمون الخطبة في إطار سياقها العام، ثمّ تعرضنا في تحليل الخطبة على ضوء المقاربة التداولية لوظيفة اللغة التداولية، والاستلزام التخاطبي، والمعاني الصريحة والمعاني الضمنية، وأفعال الكلام ثم أخيرا الحجاج وآلياته، وفي خاتمة المقال إبراز لأهم النتائج التي خلصنا إليها.

أولا: مدخل إلى تحليل الخطبة:

ويتمثّل في ما يأتي:

1 – سيرة موجزة عن الخطيب:

ولد حمو بن عمر فخّار بقصر غرداية يوم 20 ديسمبر1919م، في أسرة لا يتجاوز غناها حدود القلب، أصيلة محافظة على الأخلاق القرآنية والتّربية الإسلامية الصّالحة نشأ حمو بن عمر فخّار، الذي توفي والده وهو لم يبلغ عامه الأول، فتكفَّل به أخواه إسماعيل ومُحَمَّد ابنا عمر– رحمهما الله–، فربَّياه أحسن تربية وفق الأسس الأخلاقية الفاضلة، إيمانا منهما بالدَّور الهام الذي وجب على الأسرة المسلمة أن تقوم به. "فالوظيفة الأساسية للأسرة المسلمة بميزاب، هو السَّعي دوما لإعداد الأجيال لتحمُّل المسؤولية الاجتماعية، وخلق التَّواصل الحضاري بين الماضي والحاضر والمستقبل" (بكير سعيد أعوشت، 2006، صفحة 11). درس المرحلة الابتدائية وختم القرآن الكريم، ثمّ انتقل إلى بلدة القرارة عام1937م، وبعد عام استظهر القرآن، وما لبث أن انتقل إلى معهد الشّباب البيّوضي (معهد الحياة بالقرارة) فكان من أنجبِ طلاّبِه وألمعِ أدبائه حيث تخرَّج في أواخر1946م.

درّس في مدرسة الإصلاح بغرداية، فكان نعم المعلِّم والمربي لتلامذته إذ يعترفون له بذلك ويدينون له بالفضل في تشويقهم إلى العلم، وتحبيب النُّصوص الأدبية والقصائد الشِّعرية إليهم، ويتخذ

منها أسلوبا لتربيتهم وتهذيب أخلاقهم وصقل مواهبهم، إذ كان نموذج الأب الرحيم لتلاميذه. فهو يرى أنَّ المربي وجب أن يكون أبا روحيا قبل أن يكون معلما أو أستاذا.

لقد ملك الشيخ ـ رحمه الله ـ ناصية اللغة والأدب من خلال اغترافه من معين القرآن الكريم، والسُّنة النَّبوية الشّريفة، واطِّلاعه على كنوز الأدب العربي شعرا ونثرا، وحكما وأمثالا، وكما كان لمعهد الحياة بالقرارة وخاصة على يد أستاذيه الشَّيخ بيوض والشَّيخ عدون ـ رحمهما الله ـ أثر بالغ في تكوين شخصيته الدينية والأدبية. ويقول الشّيخ عن نفسه في استبيان كتبه بخط يده: "كان لمعهد الحياة ـ بعد مدرسة الإصلاح الابتدائية أثر كبير في تكويني الأدبي، خاصة ـ وذلك بفضل ما تلقيت من دروس في الأدب منتقاة من الأمالي للقالي والبلاغة الواضحة للجارم والنحو الواضح الثانوي، والتَّمارين في نثر القطع الشِّعرية، والمواضيع الإنشائية، والمطالعة الخارجية، كجمهرة الرسائل وجمهرة الخطب، وزهر الآداب، والعمدة لابن رشيق والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ وأضرابها. أما ميدان التطبيق فكان بجمعية الشباب مجاراة لكبار الطلبة، في كتابة المقالة والخطبة والمحاضرة... واقتحام المعارك الأدبية ولو بسلاح مفلول لا نخشى أن يفترسنا الغول"(مُحَمَّد صالح ناصر، 2008م، صفحة 397)

قضّى الشيخ حمو بن عمر فخار حياته مربّيا ومصلحا وواعظا ومرشدا وخطيبا، و تميّز بفكره الإصلاحي المعتدل، وبتكوينه الرصين الذي تلقاه من الأسرة التي نشأ فيها وترعرع بين أحضانها، ومن المدارس الحرة والرسمية التي درج فيها، ومعهد الشباب (معهد الحياة) الذي تكوّن في رحابه أديبا واجتماعيا. توفي في 17 جوان 2005م.

ومن آثاره:

خطب الجمعة، في ثلاثة أجزاء.

من خطب الأعياد

كان حديثا حسنا.

وقفات ومواقف

على درب الأنبياء الشّيخ صالح بابكر

الشّيخ بابا تامر حياته وآثاره.

الطّلاق أسبابه وعلاجه

2 – مضمون الخطبة في إطار سياقها العام:

ورد نص الخطبة في قصّة أبينا الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، حين جاءته رؤيا في المنام تأمره بذبح فلذة كبده، وهو أمر إلهي لسيّدنا إبراهيم في ابنه الذي بلغ معه السعي، وقد أوردها الخطيب في مناسبة عيد الأضحى تذكيرا للآباء بقيمة الأبناء، وتنبيها للغفلة التي تسوقهم إلى إهمال تربية أبنائهم وعدم رعايتهم والقيام بشؤونهم، ولذلك أراد تقديم نموذج حيّ في إعانة الآباء على بر الأبناء واستقامتهم، وهذا ممّا ينمّ عن حسن التربية الصحيحة والتنشئة السليمة. فالاقتداء بهذا السلوك النبوي يصلح أمر الآباء، ويصلح شأن الأبناء وتصلح الأسر ويصلح المجتمع.

استهلّ الخطيب خطبته بالبسملة، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى، ثمّ الصلاة على جميع الأنبياء والمرسلين وخصّ بالسلام خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

وجّه الخطيب خطابه إلى سادة الآباء في العالم الإسلامي مهما تعدّدت أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، تذكيرا للعاقلين وتنبيها للغافلين عن أداء رسالتهم التربوية.

فهذه المقدّمة ترد في كلّ الخطب الدينية؛ إذ تستهلّ بالبسملة والحمدلة والصلاة على رسوله ثمّ التوجه إلى المستمعين.

وأوّل ما وقف عليه الخطيب استمالة قلوب المستمعين، وشدّ انتباههم إلى قصّة الفداء بين الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. فالوالد استجاب لأمر ربّه، وابنه انقاد وانصاع لفعل أبيه وقد لصقه بالأرض مكتوفا لينفّذ فيه أمر الله تعالى. وعقب ذلك يقدّم الخطيب صورة خطاب الوالد اللين لابنه، فالوالد قادر أن يسلّط على فلذة كبده ويهيمن عليه؛ لكن خاطبه بأسلوب استعطافي حنون، فيأتي استسلام الابن لأمر أبيه، وهو ممّا ينمّ عن التجاوب العاطفي بينهما.

وقد راع الخطيب ذلك الحوار اللطيف بأسلوب رفيع بين الأب النبي والنبي الصبي، ويوجّه الآباء إلى الاقتداء بهذا الموقف البليغ في أسلوب بديع. وينبّه الآباء إلى أنّ مصدر عقوق الأبناء لهم هو جهلهم بالتربية الصحيحة السليمة، ويقنعهم بحجة الصرخة التي يحدثها الوليد عند الولادة تترجم أنّه فتنة وعدوّ وزينة، وهو ما أشار إليه كتاب الله العزيز.

ثمّ يوجّههم إلى الإحسان في التربية والتوجيه فإن فعلوا جنوا ثمارا طيّبة، وحمدوا الله تعالى على طاعة أبنائهم، وإن لم يفعلوا جنوا على أنفسهم وأصبح أبناؤهم عالة على أمّتهم.

وقبل الختام يرشد الخطيب الآباء إلى سلوك نهج الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل في التربية، فصلاح الأبناء في صلاح مربّيهم، وضمان القوت الحلال لهم.

وفي نهاية الخطبة يبيّن أنّ افتداء إسماعيل هو رحمة بنا، والأمل باق في استصلاح الأبناء، ثمّ يوضّح للآباء أنّ العقم الحقيقي هو غياب القدوة للأبناء وعدم ترك الخلف الصالح من بعدهم.

ثانيا: تحليل الخطبة على ضوء المقاربة التداولية

سنتطرق في التحليل إلى ما يأتي:

1 – وظيفة اللغة التداولية في الخطبة:

تشكّل اللغة –بصفة عامة– وظيفة أساسية هي التبليغ ونقل مقاصد المخاطِب إلى المخاطَبين، وأما من المنظور التداولي فإنّها تقوم على الوظيفة التعاملية والوظيفة التفاعلية.

1 – أ – الوظيفة التعاملية:

الوظيفة التعاملية من وظائف استراتيجيات الخطاب، وهي "ما تقوم به اللغة من نقل ناجح للمعلومات، تبرز من خلاله قيمة الاستعمال اللغوي، فيركز المرسل جهده نحو بناء الخطاب ليستطيع المرسل إليه أن يأخذ منه المعلومات الصحيحة والدقيقة"(عبد الهادي الشهري، 2004، صفحة iv)، ونجد الخطيب يحاول من خلال هذه الوظيفة نقل الواقع التربوي للآباء ليعبّر من خلاله عن قصورهم في التربية والتوجيه، وهو ما ينجم عنه عدم صلاح الذرية، وحول هذا يقول: "فالسرّ في صلاح الذرية يكمن في صلاح مربّيها وكافليها، أيّا كان"(حمو فخار، 1998، صفحة 135).

1 – ب – الوظيفة التفاعلية:

وهي وظيفة من وظائف استراتيجيات الخطاب "التي يقيم الناس بها علاقاتهم الاجتماعية، ويحققون لأنفسهم غاياتها وتتمثّل في قدر كبير من المعاملات اليومية التي تحدث بينهم فقد يقتصر دور اللغة في بعض السياقات على إقامة العلاقات وتثبيتها، وقد يتجاوز إلى التأثير وغيره"(عبد الهادي الشهري، 2004، صفحة iv)

فالخطيب بحكم وظيفته الاجتماعية، ولكونه مصلحا اجتماعيا كشف من خلال خطبته الواقع الذي يتجرّعه الآباء من عقوق الأبناء، والمتمثّل في جهلهم بطرق التربية والرعاية والتنشئة فيقول: "ما أكثر ما نشكو اليوم من عقوق الأبناء، فهل عرفنا مصدر الداء...؟ يبدو لي أنّ منشأ

ذلك جهلُنا نحن الآباء بطرق سياسة فلذات أكبادنا" (حمو فخار، 1998، صفحة 133). وهذا الواقع الأليم سيجنيه المجتمع لامحالة من خلال الانحرافات السلوكية، وهتك قيم المجتمع والمساس بمقوماته وضعف العلاقات بين أفراده، وهو ممّا يعبّر عن دراية الخطيب بقضايا أمته التي تُعْرَض عليه في ميدان الإصلاح الاجتماعي.

2 – الاستلزام التخاطبي:

وهو مبدأ من مبادئ التداولية إذ يقوم القول في الخطاب على معنيين أحدهما حرفي والآخر مستلزَم، فالمعنى الحرفي هو ما يبدو في البنية السطحية للقول؛ أي قصد مباشر يتّضح في الخطاب مباشرة، والثاني يدلّ على "معنى غير محتواه القضوي" (مسعود صحراوي، 2008، صفحة 45)، وهو قصد غير مباشر يكشف عنه سياق الخطاب، فقول الخطيب: "فهل درى الوالدان ماذا تعني صرخة الوليد، التي نتلقّاها بالبشرى والزغاريد؟ إنّها تنادي والديه بلسان فصيح، يعقله كلّ ذي لبّ صحيح: أنا الفتنة؛ (إنّما أموالكم وأولادكم فتنة) أنا العدوّ (إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم) أنا الزينة (المال والبنون زينة الحياة الدنيا). ولكن الباقيات الصالحات خير، والله عنده عظيم الأجر، فاحذر ثمّ احذر..." (حمو فخار، 1998، صفحة 133، 134). فالمعنى الحرفي في صرخة الوليد أنه فتنة وعدو وزينة، والمعنى الثاني في المحتوى القضوي أنّ الوليد هو امتحان للوالدين إذا رزقهما الله به، وامتحان إذا حرما منه، والوالدان ممتَحَنان في تنشئته أولادهم وتربيتهم ورعايتهم، وحملهم على طاعة ربّهم، وبعض من هؤلاء الأولاد أعداء لآبائهم في المآل لا في الحال، لأنّ الآباء أعطوا أبناءهم وأرضوهم على حساب طاعتهم لله، فسيكون أبناؤهم أعداء ألدّاء لهم يوم القيامة. والبنون زينة فإذا أحسن الآباء تربيتهم وابتغوا من ذلك وجه الله تعالى كان جزءا مهمّا من الباقيات الصالحات التي ختم بها الله تعالى الآية الكريمة.

3– المعاني الصريحة والمعاني الضمنية: اقترحها غرايس لتنميط العبارات اللغوية ما يأتي (أحمد المتوكل، 1989، صفحة 26):

3 – أ – المعاني الصريحة: وهي التي ترد في الجملة صريحة، وتشمل المحتوى القضوي، والقوة الإنجازية الحرفية (مسعود صحراوي، 2008، صفحة 47):

أ – 1 – المحتوى القضوي: يشكل العلاقة الإسنادية بين معاني مفردات الجملة، وعلى سبيل المثال **الاستفهام** قول الخطيب: "فهل نعي –نحن الآباء– هذا الدرس البديع الذي تحمله

قصة عيد النحر في مطاويها ...فيما تحويه من عظات؟!" (حمو فخار، 1998، صفحة 132). فالمحتوى القضوي في القول هو وجوب وعي هذه القصة والاعتبار بها.

وفي قوله صيغة **الأمر**: "وقد كان بوسعه وهو المهيمن المسيطر على ابنه الذي لا يردّ له قولا، ولا يعقّب له حكما، أن يكتفي بالقول: اضطجع يا ولدي لأذبحك، ثم يمضي عليه حكم ربّه" (حمو فخار، 1998، صفحة 132)، فالمحتوى القضوي اضطجاع الولد خضوعا لله وامتثالا لأمر والده استعدادا للذبح.

وفي قوله أيضا: "فمن كان يرجو صلاح ذريته –أيها المسلمون– واستقامتها ونجابتها ونجاحها في أولاها وأخراها، فلينصب لها من نفسه النموذج الخيّر بسلوكه الطيّب" (حمو فخار، 1998، صفحة 135). في قوله محتوى قضوي هو الفعل المضارع المقترن بلام الأمر (فلينصب) والذي يدل على وجوب قيام الآباء بواجب التربية، وأن يكونوا قدوة لأبنائهم.

ويقول الخطيب: "لا تيأسوا من استصلاح من ضلّ وغوى من أبنائكم، ما طاب مكسبكم" (حمو فخار، 1998، صفحة 135)، فالمحتوى القضوي في **النهي** هو عدم اليأس من ضلال الأبناء وغوايتهم، مع المداومة في إرشادهم وتوجيههم.

أ– 2 – القوة الإنجازية الحرفية: الدلالة التي تنكشف من خلال الاستفهام والأمر والنهي والنداء والتمني والتوكيد.. "وتشمل كلّ ما يواكب جملة ما أو نصا كاملا من مقاصد أثناء التواصل" (أحمد المتوكل، 2003، صفحة 47) ففي قول الخطيب استفهام بأداة (هل) والتي تدل على التصديق إذ تثبت الحكم للشيء أو تنفيه عنه.

وقول الخطيب ورد بصيغة الأمر (اضطجع) والذي يدل على الوجوب استجابة لأمر الله.

وقوله (فلينصب) أمر وهو وجوب التفرغ للتربية.

وقوله بصيغة النهي (لا تيأسوا) الحذر من اليأس فهذا المعنى الصريح ناتج من ضم المحتوى القضوي إلى القوة الإنجازية الحرفية.

3 – ب – المعاني الضمنية: وهي التي يحكمها السياق، ولا تدل عليها صيغة الجملة وتشمل ما يأتي:

ب – 1 – معان عرفية: وهي الدلالات الملازمة للجملة في مقام معيّن وهو الاقتضاء، فقول الخطيب من خلال المعني العرفي هو اقتضاء الاعتبار بقصة الفداء في تربية الأبناء.

والخطيب قد أمر ولده بالاضطجاع للذبح وهو اقتضاء تنفيذ الرؤيا التي رآها في المنام.

ويوجه الخطيب الآباء إلى التربية بصيغة الأمر (فلينصب) اقتضاء قيام الآباء بمسؤوليتهم.

وينهى الخطيب عن اليأس (لا تيأسوا) فالمعنى العرفي هو بذل الجهد في مسؤولية التربية والرعاية والتوجيه وعدم الملل والاستسلام.

ب – 2 – معان تخاطبية: وهي المعاني التي تتولد من المقامات كالمعنى التخاطبي الاستلزامي من قول الخطيب وهو رجاؤه من الآباء الاحتذاء بإبراهيم عليه السلام في تربية أبنائهم.

والمعنى التخاطبي الاستلزامي من الأمر (اضطجع يا ولدي لأذبحك) هو يقين سيدنا إبراهيم عليه السلام الجازم بربّه، والتصديق برؤياه.

فقول الخطيب (فلينصب لها من نفسه النموذج الخير بسلوكه الطيّب) معناه التخاطبي الاستلزامي هو رجاء القدوة الحسنة التي يراها الأبناء في آبائهم.

ويتضمن أسلوب النهي (لا تيأسوا) معنى تخاطبيا استلزاميا وهو على الآباء معاتبة أنفسهم بالقصور في أداء مسؤوليتهم في التربية وإهمالهم لهذا الجانب أولى من اليأس والاستسلام للواقع، وما دام الأب بذل جهده في التربية والرعاية فإن رأى اعوجاجا من ابنه وانحرافا فلا ييأس فالله معينه وموفقه في سعيه.

4 –أفعال الكلام (Les actes de language):

يهتم الخطاب التداولي بدراسة الأفعال الكلامية التي "ظهرت بجهود فتجنشتاين Wittgenstein(1898- 1951). ثمّ تبنّاها جون أوستين Austin(1911 – 1960). وعمّقها جون سورل Searle" (محمد مدور، 2020، صفحة 165)، ويعرف محمد مدور –نقلا عن نعمان بوقرة – أفعال الكلام بأنّها "دراسة مقاصد المتكلم ونواياه، فالمقصد يحدّد هدف المرسل من وراء سلسلة الأفعال اللغوية، التي يتلفظ بها، وهذا ما يساعد المتلقّي على فهم الخطاب ومن ثمّة يصبح توفر القصد والنية مطلبا أساسيا، وشرطا من شروط نجاح الفعل اللغوي، الذي يجب أن يكون متحقّقا ودالا على معنى" (محمد مدور، 2020، صفحة 165)، ووفق هذا التعريف فإنّ أفعال الكلام ترتكز أساسا على القصد والنية، التي بواسطتها يتوصّل المتلقي إلى الأغراض التي ينوي المتكلم إيصالها، فهنا يتوغل المتلقي إلى عمق الرسالة التي تحملها التراكيب من أجل الكشف عما تتضمنه من أغراض.

ونجد في الخطبة أفعالا كلامية تتمثّل في ما يأتي:

4 – أ – الأفعال الكلامية الاستفهامية: ومنها هذه الصيغ:

(**فهل نعي** –نحن الآباء– هذا الدرس البديع الذي تحمله قصّة عيد النحر في مطاويها...فيما تحويه من عظات؟) (حمو فخار، 1998، 132)

(ما أكثر ما نشكو اليوم من عقوق الأبناء، **فهل عرفنا** مصدر الداء...؟) (حمو فخار، 1998، صفحة 133)

(**فهل درى** الوالدان ماذا تعني صرخة الوليد، التي نتلقّاها بالبشرى والزغاريد؟) (حمو فخار، 1998، صفحة 133)

(فمن منّا ينصاع لأمر جاءه في منام يطالبه أن يتقرّب بذبح وحيده دون تلكّؤ أو إحجام؟) (حمو فخار، 1998، صفحة 135)

إنّ هذه الصيغ الاستفهامية لا تعبّر عن ذاتها بقدر أنّها تحمل شحنات دلالية إنجازية تنبئ عن المقصود الذي يريده الخطيب، وبهذا فهي لا تنتظر جوابا من المتلقّي بل تسعى إلى التأثير فيه وبذلك فهي تنطوي في أغراض هي: الاعتبار – البحث والتقصي – لفت الانتباه – الاستبعاد. فهذه الأغراض يبيّن من خلالها الخطيب أن أعظم درس في قصّة الفداء هو الاعتبار من استسلام إبراهيم الخليل عليه السلام لأمر ربّه الذي تلقاه في المنام ابتلاء، وانصياع الابن إسماعيل عليه السلام بكل طواعية لأبيه، وبكل خضوع لربّه.

ويلفت الخطيب من خلال الاستفهام إلى المشاكل التي كثرت في وسط الأسر والمجتمع، ويدعو المستمعين إلى البحث والتقصي عن مصدر الداء الذي أدى إلى هذه المشاكل.

وإنّ الصرخة التي يحدثها الوليد عند الولادة تحمل دلالات إلى الآباء تتمثّل في المداومة على التربية والصبر عليها؛ لأنّ في ذلك ابتلاء للوالدين في إيمانهم بالرسالة التربوية والقيام بدورهما في هذا الجانب، وتحمّلهم مسؤولية المتابعة والتوجيه، فأولادهم زينة الحياة فهم الخلف من بعدهم إن أحسنوا تأهيلهم للحياة لحمل الأمانة وتحمل المسؤولية، وإلا سيصبحون نقمة على والديهم وعالة على مجتمعهم. ومادام الأبناء فلذات الأكباد والتعلق بهم كبيرا فيستبعد أن يقبل الأب على ذبح ابنه مهجة قلبه ونور عينيه دون تلكأ أو تراجع. فهذه الدلالات كلّها تعبّر عن قيمة الأبناء في الحياة وعمارة الأرض واستمرار البشرية.

4 – ب – أفعال الأمر: وقد وردت في هذه التراكيب:

(**اسمعوا** معشر الآباء كيف يأمر إبراهيم عليه السلام ابنه في استعطاف يلين له الحجر الصلد) (حمو فخار، 1998، صفحة 132)

(**اضطجع** يا ولدي لأذبحك، ثم يمضي عليه حكم ربّه، ثمّ لا ينكر عليه أحد قولته ولا فعلته) (حمو فخار، 1998، صفحة 132)

(...ولكن الباقيات الصالحات خير، والله عنده عظيم الأجر، **فاحذر** ثمّ **احذر**) (حمو فخار، 1998، صفحة 134)

(فمن كان يرجو صلاح ذرّيته – أيّها المسلمون – واستقامتها ونجابتها ونجاحها، في أولاها وأخراها، **فلينصب** لها من نفسه النموذج الخيّر بسلوكه الطيّب) (حمو فخار، 1998، صفحة 135)

فصيغ الأمر التي وردت على لسان الخطيب تحمل في طياتها معاني ضمنية يريد الخطيب من خلالها تعميق اليقين بالله في طاعة أوامره، وإبراز تلك العاطفة الجامحة في قلب إبراهيم عليه السلام وهو مقبل على ذبح ابنه حتّى الحجر القاسي يلين بعاطفة إبراهيم، بمعنى أنّ إبراهيم عليه السلام نفّذ أمر ربّه رغم تلك العاطفة الأبوية التي تتأجج في قلبه، وهذه رسالة إلى الآباء تحملهم على أن يستعطفوا بأبنائهم مهما كان خطأهم أو نزقهم، ويحذروا من أن يكونوا سببا في انحراف أبنائهم وعقوقهم، بل عليهم أن يكونوا نموذجا لهم للتأسي والاقتداء.

4 – ج – أفعال النفي: تمثّل هذه الأفعال في العبارات الآتية:

(وقد كان بوسعه وهو المهيمن المسيطر على ابنه الذي **لا يردّ** له قولا، و**لا يعقّب** له حكما أن يكتفي بالقول: اضطجع يا ولدي لأذبحك، ثمّ يُمضي عليه حكم ربّه، ثمّ **لا ينكر** عليه أحد قولته ولا فعلته، ولكنّه إبراهيم الأوّاه الحليم **ما كان** بوسعه أن يسلك غير ما سلك. لقد أدّبه ربّه فأحسن تأديبه، ولو **لم يكن** كذلك **لم يكن** ردّ ولده عليه في مثل تلك الوداعة والطمأنينة والصبر والأناة) (حمو فخار، 1998، صفحة 132)، فأفعال النفي تدلّ دلالة ضمنية على الانقياد التام والطاعة الكاملة التي اتّسم بها إسماعيل عليه السلام، كما أنّ أباه إبراهيم عليه السلام وبيقينه الجازم يقبل على تنفيذ أمر ربّه ولو في الفداء بابنه الذي طالما كان ينتظره لينعم به.

(ولو علم الله في إسماعيل غير الخير **لما فداه** بذبح عظيم، ولو **لم يعلم** في كليمه موسى خيرا لأذن لليمّ أن يبتلعه رضيعا) (حمو فخار، 1998، صفحة 134)، إن أفعال النفي في العبارة تتضمّن معنى صلاح إسماعيل عليه السلام وما يحمله من بشائر يكون نورا في الحياة فكان الله به رحيما، كما كان لكليمه موسى عليه السلام أيضا.

(ونحن وإن كنّا **لا نقوى** على بلوغ درجات الأنبياء، لكن بوسعنا وقدرتنا أن نتشبّه بهم، لأنّهم **ما بُعثوا** إلّا مثلا للاحتذاء، وهداة للاقتداء) (حمو فخار، 1998، صفحة 135)، فأفعال النفي تحمل دلالة ضمنية مفادها دعوة الآباء إلى التأسي والاقتداء بالأنبياء.

5 – الحجاج: هو "بذل الجهد لغاية الإقناع، إنّه طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم، أو إلى زيادة درجة تلك الاستمالة" (حافظ إسماعيلي علوي، 2010، صفحة 04)، وبهذا يكون الحجاج السند القوي والدعامة الأساس لكلام الخطيب، ووسيلة للإقناع والتأثير في المتلقّي، ففي هذه الخطبة نلحظ الخطيب يحاول إثارة مشاعر المستمعين وإيقاظ ضمائرهم وشحذ هممهم من خلال قصة الخليل إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام وما فيها من عبر وعظات وتلك الآيات الكريمات التي تدعمها، والصور البيانية التي تتراءى المعاني الضمنية من ظلالها، وبواسطتها يوجه الخطيب الآباء إلى تصحيح مسارهم التربوي مع الأبناء، بالإضافة إلى آليات الحجاج؛ كالتوكيد، وأسلوب القصر، والحصر، والتكرار كتكرار الكلمة أو تكرار الجملة.

5 – أ – الحجاج بالدليل: نجد في الخطبة جملة من الأدلة القرآنية الصريحة التي كان الخطيب يدعم بها كلامه وهو يعرض قصّة الخليل إبراهيم مع نور مهجته إسماعيل عليهما السلام، وكيف سلك الأب الحاني مسلك إقناع ابنه بذبحه، وكيف يستجيب الابن بكلّ سلاسة وطواعية لأمر أبيه، وفي ذلّة وخضوع وامتثال. ومن أمثلة ذلك الأمر بعد النداء العاطفي في يقين وثبات وبكلّ انسيابية (**يا بنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى**) (الصافات: 102) ويجيب الابن على التو وبصبر جميل في لمسة عاطفية رقيقة (**يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين**) (الصافات: 102) تجاوبت العاطفتان فالتقتا على حلاوة الإيمان وبرد اليقين.

وحين انتقل الخطيب إلى إقناع الآباء بقيمة الأبناء في حسن تربيتهم ورعايتهم وتوجيههم بيّن لهم أن ذلك يتطلّب منهم جهدا مضاعفا ومسعى حثيثا وسياسة رشيدة للأخذ بيد أبنائهم نحو

الاستقامة والصلاح. ويستدلّ الخطيب لتعزيز ذلك بقول الله تعالى حين يستهلّ الوليد بالبكاء في لحظة خروجه إلى الدنيا: (**إنّما أموالكم وأولادكم فتنة**) (التغابن: 15) (**إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم**) (التغابن: 14) (**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**) (الكهف: 46)

فالخطيب يريد أن يبثّ في فلوب الآباء أنّ الأبناء نعمة إلهية وهو ابتلاء لهم فإن قاموا بتحملّ مسؤوليتهم كاملة جنوا حلو الثمار من أبنائهم وكانوا بحق زينة الحياة يسعدون بهم، وإن تخلوا عن واجبهم وألقوا الحبل على غاربه لم يجنوا إلّا علقما، وصار أبناؤهم وبالا عليهم وأصبحوا عالة على غيرهم.

ويواصل الخطيب في الإقناع بأنّ استقامة الأبناء واعتدالهم بطيب مكسب الآباء فلا يأخذهم اليأس ولا يطوّح بهم التشاؤم إذا انحرف أبناؤهم ما داموا قد أخلصوا في تربيتهم وتحرّوا في كسبهم، فالله معهم يعينهم ويوفقهم ويحسن إليهم ما اتقوه في أبنائهم وأحسنوا في حمل أمانة التربية واستدل على ذلك بقوله: (**إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**) (النحل: 128)

ويبيّن الخطيب أنّ العقم الحقيقي هو عدم ترك الآباء خلَفًا صالحا عند كبرهم أو وفاتهم، فساق للتعبير عن هذا المعنى صورة محسوسة ناطقة عن جنّة خضراء فيحاء كان صاحبها يتعهّدها بالرعاية لكن حين كبر ضيّعها من جاء بعده فأتى عليها إعصار فأحرقها كأنّها لم تغن بالأمس، فمثلها مثل من لم يداوم على رعاية أبنائه، ولم يتعهّدهم بالمرافقة والتوجيه فوجد فيهم قرناء السوء مآربهم فارتطموا في حمأة الرذيلة. يقول الله تعالى: (**أيودّ أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كلّ الثمرات وأصابه الكبر وله ذريّة ضعاف فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون**) (البقرة: 265)

وممّا نلحظه في الحجاج بالدليل تضمين الخطيب كلامه بألفاظ قرآنية مثل: (فتبارك الرحمن الذي خلق الإنسان، علّمه البيان – ولكن الباقيات الصالحات خير، والله عند عظيم الأجر – أجمع إخوته على أن يجعلوه في غيابات الجبّ – لا تيأسوا من ضلّ وغوى من أبنائكم – إنّ الله قد وعد الذين جاهدوا فيه أن يهديهم سبُلَه). وكذلك يريد الخطيب التأثير في المتلقي وإقناع الآباء من خلال تقديم ثلاثة نماذج من ابتلاء الله تعالى للأنبياء عليهم السلام الذي وجد فيهم صدق الإيمان، وقوة اليقين فكانوا بذلك أحسن قدوة وأقوى نموذج للاهتداء: (**ولو علم الله في**

إسماعيل غير الخير لما فداه بذبح عظيم، ولو لم يعلم في كليمه موسى خيرا لأذن لليمّ أن يبتلعه رضيعا، ولولا ما كان يتّسم به أجمل الناس خِلقة يوسف من كمال الخُلق لغيّبته الأقدار يوم أجمع إخوته أن يجعلوه في غيابات الجبّ...) (حمو فخار، 1998، صفحة 134)، فهذه حجّة قوية للآباء ليعلموا أنّ أبناءهم ابتلاء لهم في تعاملهم مع سلوكهم اعتدالا أو إعاقة؛ لأنّهم سبب سعادتهم أو شقوتهم.

5 – ب – الحجاج بالصور البيانية: كثرت الصور البيانية في الخطبة بين التشبيه والاستعارة والكناية، ونجد الخطيب في خطبته وهو ينقل النموذج الحي والمثال الواقعي في التربية، وعلاقة الآباء بالأبناء من حيث الأخذ بأيديهم إلى طريق الصلاح والفلاح واستقامتهم على أمر الله تعالى، وبرّ والديهم انصياعا وانقيادا وإحسانا، يحاول من خلال ظلال الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية استشفاف الدلالات الضمنية التي يريد إيصالها إلى المتلقّي دعما لفكرته وسندا لمقاصده، ومن أمثلة ذلك نلحظ ما يأتي:

(**يزجي إليه الأمر بأنّه أمسى قربته لربّ العالمين**) (حمو فخار، 1998، صفحة 131)، وردت في العبارة استعارة مكنية وهو يشبّه المعنى المجرّد (الأمر) بشيء محسوسة كالسفينة التي يزجيها القطبان بالمجاديف للسير بها في البحر، فالمعنى الذي يطفو على سطح العبارة هو إلقاء الأمر من الخليل إبراهيم عليه السلام على ابنه إسماعيل عليه السلام بأن يتقرّب به إلى ربّه امتثالا لأمره. وأما الدلالة العميقة التي تكتنفها العبارة هي الواقع الذي أصبح فيه إسماعيل عليه السلام يتقبله ويستسلم له فلا مناص منه.

(**ممّا يروّع السامع في قصّة الفداء أنّ السموات والأرض ومن فيهنّ ضجّت بالبكاء على إسماعيل لما أسلم رقبته للسكين**) (حمو فخار، 1998، صفحة 133)، كناية عن تأثر كلّ ما في الكون باستسلام إسماعيل عليه السلام للذبح. وهذا أسلوب حجاجي إقناعي لكل من كان له عقل حصيف وقلب رحيم يهتزّ لهذا الموقف المؤلم، فكيف بحال النبي الخليل عليه السلام الذي أمر بذلك الفعل في ابنه تنفيذا لأمر ربّه؟

(**ينشأ جرثومة موبوءة عفنة تضرّ بالأموات بله الأحياء**) (حمو فخار، 1998، صفحة 134)، تشبيه بليغ إذ شبّه الخطيب الابن الذي لم يتربّ تربية صحيحة كان كجرثومة تضر بصحة الإنسان، وقد أورد الخطيب هذه الصورة المحسوسة من أجل إقناع الآباء بأن صلاح أبنائهم

صلاح للمجتمع وفسادهم فساد للمجتمع، فإن نشأوا على سلوك منحرف أصبحوا سوسا ينخر جسد المجتمع فلا يبقي ولا يذر.

(فما أحسب ما نشكوه من طيش ورعونة في بعض الأسر إلّا من الغذاء الحرام، فضلا عن أنّه يحجب الدعاء ويُضرب به صاحبه كالثوب البالي يدنّس وضاءة وجهه ويطمس نوره قلبه) (حمو فخار، 1998، صفحة 135)، ففي هذه الصورة البلاغية البيانية يشبّه الخطيب الغذاء الحرام بالثوب البالي، فإذا كان الغذاء الحرام يحرم إجابة الدعاء فإنّ الثوب البالي يفقد زينة صاحبه. فهذه الصورة تحمّل الآباء مسؤولية تحرّي الحلال في الكسب لضمان صلاح الذرية والدعاء المستجاب. فلا يرتجى خير من إنسان غذِّي بالحرام، وتربّى على الحرام.

5 – ج – الحجاج بالبديع: فالبديع آلية أسلوبية يقوم بوظيفة حجاجية، فقد ورد في الخطبة في بعض فقراتها مثل: **(ما أكثر ما نشكو اليوم من عقوق البناء، فهل عرفنا مصدر الداء...؟)** (حمو فخار، 1998، صفحة 133)،

(فمن منّا ينصاع لأمر جاءه في منام يطالبه أن يتقرّب بذبح وحيده دون تلكّأ أو إحجام؟) (حمو فخار، 1998، صفحة 135)

(وما كان افتداء إسماعيل إلّا رحمة بنا، ليبقى باب الأمل مفتوحا على مصراعيه في استصلاح الأبناء، والبلوغ بهم رويدا رويدا وفي رفق وأناة شاطئ الاهتداء) (حمو فخار، 1998، صفحة 136)

(أعيذكم بالله وأعيذ نفسي من العقم الذي يشين الرجال، وما العقم الذي يعرفه الناس أعني، ولكن عقم أعقابنا من الصلاح، وأسباب النجاة والفلاح) (حمو فخار، 1998، صفحة 136)

استند الخطيب في أسلوب إقناعه إلى البديع ومنه السجع الذي هو من المحسنات اللفظية، فقد أراد من وراء ذلك المحسّن تنمية الذوق الفني لدى المتلقي، وتنمية الحس الفني التربوي في معاملة الآباء للأبناء تهذيبا وتوجيها وتكوينا، وتنشئتهم على هذه القيمة الجمالية في حياتهم.

وكما ورد في الخطبة محسن لفظي آخر يتمثّل في الجناس مثل: **(النبي – الصبي)** (حمو فخار، 1998، صفحة 133)– **(الصلاح – الفلاح)** (حمو فخار، 1998، صفحة 136)، فالجناس مثل السجع وظيفته تحسين العبارة وتنميق اللفظ، فقد وظّفه الخطيب لإثارة الإحساس

بالجمال الفني لدى المتلقي. ونجد في مقابل ذلك محسنا بديعيا معنويا وهو الطباق مثل: (**الأولى – الأخرى**) (حمو فخار، 1998، 134) – (**الأموات – الأحياء**) (حمو فخار، 1998، صفحة 134) – (**الآباء – الأبناء**) (حمو فخار، 1998، صفحة 135) – (**الحلال– الحرام**) (حمو فخار، 1998، صفحة 135)، هذه المحسنات المعنوية وردت في الخطبة تعميقا للفكرة وتقوية للمعنى، فالخطيب أراد من خلال الطباق تضمين دلالة سعادة الآباء تتحقق بصلاح أبنائهم إن هم أحسنوا تربيتهم وتوجيههم. كما أنّ شقاء الآباء وتعاستهم هو نتيجة لسوء تربية أبنائهم الذين أصبحوا مرضا عضالا يشكّل خطرا على وجودهم ومجتمعهم. وينتقل الخطيب في الحجاج بالطباق إلى البيان للآباء بأنّ نعمة الأبناء امتحان لحقيقة إيمانهم وصبرهم على ما يصدر منهم، وابتلاء في صدق علاقتهم بهم في المواقف الحرجة خصوصا.

5 – د – الآليات الحجاجية: وردت في الخطبة لتثبيت المعاني في نفس المتلقي وإقناعه بالفكرة التي يريد الخطيب ترسيخها في ذهنه، ومن الآليات اللغوية التي وقفنا عليها:

د –1– التكرار: ومن التكرار اللفظي الضمير (**أنا**) في قوله: (**أنا الفتنة...أنا العدو...أنا الزينة...**) (حمو فخار، 1998، صفحة 134،133) – تكرار فعل الأمر (**احذر**) في قوله: (**احذر ثمّ احذر...**) (حمو فخار، 1998، صفحة 134) – تكرار الفعل الماضي (**كانوا**) في قوله: (**كانوا لنا، وإلّا كانوا علينا**) (حمو فخار، 1998، صفحة 134)، – تكرار لفظة (**رويدا**) في قوله: (...**والبلوغ بهم رويدا رويدا وفي رفق وأناة شاطئ الاهتداء**) (حمو فخار، 1998، صفحة 136) – تكرار كلمة (**الأمل**) في قوله: (...**وهو الأمل كلّ الأمل...**) (حمو فخار، 1998، صفحة 136).

وأمّا عن التكرار المعنوي فنجد الخطيب يكرّر الكلمة بمرادفها مثل تكرار معنى للصفة (**البار**) بصفة (**المطيع**) في قوله: (...**ثمّ اسلوب الابن البار المطيع إسماعيل في الردّ على أبيه.**) (حمو فخار، 1998، صفحة 131) – تكرار مفردة (**المهيمن**) بالمعنى المرادف لها (**المسيطر**) (حمو فخار، 1998، صفحة 132) – وتكرار لفظة (**اللبيبين**) بالمعنى المرادف لها (**الأريبين**) (حمو فخار، 1998، صفحة 133) – تكرار كلمة (**طيش**) بكلمة (**رعونة**) بالمعنى.

من خلال التكرار اللغوي اللفظي والتكرار اللغوي المعنوي نرى الخطيب وهو يوجّه الآباء إلى مرافقة أبنائهم وتوجيههم الوجهة السليمة يؤكّد لهم أنّ هذا السلوك الحسن الذي يسلكونه معهم سيحقق سلامتهم وصلاحهم، فيجنون ثمرة برهم وطاعتهم، ويسلمون من مغبّة تمرّدهم وانحرافهم.

د – 2 – القصر: وظّف الخطيب في خطبته آلية حجاجية أخرى تتمثّل في أسلوب القصر ومن أمثلته القصر بأداة (**لكن**) في قوله: (**وقد كان بوسعه وهو المهيمن والمسيطر على ابنه الذي لا يردّ له قولا، ولا يعقّب له حكما، أن يكتفي بالقول: اضطجع يا ولدي لأذبحك، ثمّ يُمضي عليه حكم ربّه، ثم لا ينكر عليه أحد قولته ولا فعلته، ولكنّه إبراهيم الأوّاه الحليم**...) (حمو فخار، 1998، صفحة 132)، وكذلك القصر بنفس الأداة في قوله: (**أعيذكم بالله وأعيذ نفسي من العقم الذي يشين الرجال، وما العقم الذي يعرفه الناس أعني، ولكن عقم أعقابنا من الصلاح، وأسباب النجاة والفلاح**) (حمو فخار، 1998، صفحة 136)، القصر بـ (**لكن**) و (**إلّا**) في قوله: (**ونحن وإن كنّا لا نقوى على بلوغ درجات الأنبياء، لكن بوسعنا وقدرتنا أن نتشبّه بهم، لأنّهم ما بُعثوا إلّا مثلا للاحتذاء، وهداة للاقتداء**) (حمو فخار، 1998، صفحة 133)

القصر بأداة الحصر (**إنّما**): (**فاستسلام الابن على هذه الصورة العجيبة، إنّما كانت مستقاه ومنبثقه من معاملة الوالد اللّينة الحكيمة، وأسلوب الإقناع الرشيد الذي يستنزل العُصم من عليائها**...) (حمو فخار، 1998، صفحة 132)، والحصر بـ (**إلّا**) في قوله: (**فما أحسب ما نشكوه من طيش ورعونة في بعض الأسر إلّا من الغذاء الحرام**...) (حمو فخار، 1998، صفحة 135)، وكذلك في قوله: (**وما كان افتداء إسماعيل إلّا رحمة بنا، ليبقى باب الأمل مفتوحا على مصراعيه في استصلاح الأبناء**...) (حمو فخار، 1998، صفحة 136).

إنّ الخطيب وقد وظّف أدوات القصر والمتمثّلة في أداة؛ إنّما، ولكن، وإلّا، فهو يريد ضمنيا إبراز سمات الحكمة التي يتميّز بها سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وأسلوب الرفق والمرونة التي تحلّى بها في معاملة ابنه إسماعيل عليه السلام، فتربّى الابن على هذا المنهج الرباني فكان منقادا ومنصاعا لأوامر أبيه. فالخطيب يرمي من وراء ذلك إقناع الآباء على أنّ كسب ثقة الأبناء ينبثق من حسن معاملتهم والتلطف بهم، فهو الأساس في بناء العلاقة الإيجابية في ما بينهم.

وانتقل الخطيب إلى إقناع الآباء في أنّ صلاح أبنائهم وانقيادهم لهم يتمثّل في القوت الحلال الذي يقدّمونه لهم؛ ففيه سر اعتدال سلوك الأبناء وانصياعهم لآبائهم.

خاتمة:

في نهاية تحليلنا التداولي الحجاجي للخطبة نجد الخطيب قد وقف – في عرض قصّة الفداء – موقف المربّي النصوح والمرشد اللبيب في استخلاص العبر من القصّة واتّخاذها طريقة توجيهية وأسلوبا إقناعيا للآباء في تنشئة أبنائهم تنشئة صالحة، والقيام برعايتهم وتوجيههم الوجهة الصحيحة وتربيتهم تربية قويمة يحقق استقامتهم وصلاحهم. فالخطيب ممن خبر المجتمع من خلال الإصلاح الاجتماعي.

وأسلوبه في تناول قضية العلاقة بين الآباء والأبناء، ومسؤوليتهم تجاههم؛ تربية ومرافقة ورعاية وتوجيها وتكوينا، وسلوك المنهج الصحيح في معاملتهم وكسب ثقتهم.

وقد خلصنا من خلال هذا المقال إلى ما يأتي:

1 – تبيان كلّ من الوظيفة التعاملية والوظيفة التفاعلية ما للخطيب من قدرة في نقل وقائع قصة الفداء التي جرت بين الوالد سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، وأبعادها الإيمانية والتربوية والاجتماعية.

2 –تجلّيات الأسلوب الحجاجي، وتنويعه في الحجج؛ كالحجاج بالصور البيانية والحجاج بالبديع والحجاج بالدليل في الخطبة استنادا إلى كتاب الله العزيز، ونماذج من الأنبياء وما ابتلاهم الله به كالنبي موسى عليه السلام وإلقائه في اليم رضيعا، وابتلاء يوسف عليه السلام بإلقائه في غيابات الجب.

3– تنوع الصور البيانية في الخطبة كالتشبيه والاستعارة والكناية؛ فهذه الصور زيادة على ما تدلّ عليه من معان تتضمن رسائل دلالية تقنع الآباء بالأمانة التي حملوها والمسؤولية التي تحمّلوها في توجيه أبنائهم نحو ما يصلح حالهم وحال أسرهم ومجتمعهم.

4– كشف الأفعال الكلامية الواردة في الخطبة كالاستفهام والأمر والنفي عمّا لقيمة تربية الأبناء ومرافقتهم وتكوينهم من أثر في سلوكاتهم.

5– ورود الآليات اللغوية الحجاجية في الخطبة كالتكرار اللفظي والتكرار المعنوي وأسلوب القصر ممّا أضفى على أسلوب الخطيب صفة إقناع المخاطبين بالمنهج التربوي السليم الذي ينبغي أن يسلكه الوالدان في التربية.

6– قوة الحجاج في إقامة الدليل والحجة قصد إقناع المخاطب والتأثير فيه، فالخطيب قد حاول من خلال موضوع الخطبة أن يخاطب العقل والعاطفة معا، وقد تجلت مخاطبة العقل في مدى الاستسلام لأمر الله في كل محنة، ومخاطبة العاطفة في مدى تقبّل الوالد لذبح فلذة كبده، وقصدية الخطيب هي التوفيق بين العقل والعاطفة في تربية الأبناء وتنشئتهم.

المراجع:

القرآن الكريم

1 – أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، منشورات عكاظ، المغرب، د.ط، 1989م

2 – أحمد المتوكل، الوظيفة بين الكلية والنمطية، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط1، 2003م

3 – بكير سعيد أعوشت، أصالة الفكر الإصلاحي، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، د.ط، 2006م

4– حافظ إسماعيلي علوي وآخرون، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010م.

5– حمو بن عمر فخار، من خطب العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى، 1998

6– عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، د، ط، د، ت.ط

7– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2004م

8– عماد علي سليم الخطيب: في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمَّان، الأردن، ط01، 2009م، 1430هـ

9– مُحَمَّد سعيد كعباش، صرخات على مسرح المجتمع، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، وحدة الطباعة، رويبة، الجزائر، د.ط، د.ت.ط

10– مُحَمَّد مدور، التداولية قضايا ومفاهيم، المثقف للنشر والتوزيع، الجزائر (باتنة)، ط1، 1442هـ، 2020م

11– مُحَمَّد صالح ناصر، مشايخي كما عرفتهم، دار الرّيام. الجزائر، ط01، 1429هـ/ 2008م

12– مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار التنوير للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، ط1، 1429هـ/ 2008م